آثار الفينيقيين

في قرطاجنة

قرطاجنة عاصمة الفينيقيين الافريقية كانت على مقربة من مدينة تونس الآن. دمرها القائد الروماني سيبيو افريكانوس في نهاية الحرب الفينيقية الثالثة سنة ١٤٦ ق . م بعد ان لقيت رومية منها اشد الاهوال . وقد اهتم بعض القاطنين في جوار موقعها القديم ان يحفروا ما طمر تحت ترابها من الآثار كما فعل الايطاليون في خرائب مدينة بومباي التي دمرها بركان يزوف . وكان بعض الرهبان الفرنسويين اول من اقدم على هذا العمل واهتمت الحكومة الفرنسوية باعمال التنقيب منذ عهد قريب فامدّت العاملين هناك بكل ما يحتاجون اليه لمتابعة اعمالهم فوجدو على عمق ٢٠ قدم اثار ثلاث مدن زهت اثناء ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة اقدمها مدينة مصرية . والثانية فينيقية وهي المدينة التي نشأ فيها هملكار وهنيبال وحربت رومية بقيادتهما . والثالثة مدينة رومانية بناها قياصرة الرومان بعد ما تغلبوا على القرطاجنيين فزهت في القرنين الثاني والثالث بعد المسيح ثم افتتحها الڤاندال [1] وجاء بعدهم الروم البزنطيون ثم دخلتها جيوش العرب سنة ٦٩٨ م (٧٩ هـ) بعد فتح مصر وما رابلس وبرقة فخرّبت ما سلم من جيوش الفاتحين الاولين

لم تهتم الحكومة الفرنسوية بعد استيلائها على تونس بالتنقيب عن آثار قرطاجنة لانها صرفت انتباهها الى سياسة البلاد وادارتها فسهل على الاهالي الساكنين في جوارها ان ينهبوا ما يجدونهُ من قطع الفسيفساء والتماثيل وقواعد الاعمدة . وقد سبقهم الى ذلك بعض الاوربيين فنقلوا آثاراً ثمينة الى فلورنسا وبيزا زينت بها البيوت والكنائس . وبلغ الطمع من الكثيرين حتى اخذوا الحجارة من جدران البيوت القديمة واستخرجوا قواعد التماثيل المطمورة ونحتوها وبنوا بها بيوتهم ففقد بذلك كثير من الآثار الثمينة

(١) الڤاندال جيل من الشعوب التوتونية التي هاجت الامبراطورية الرومانية في غال واسبانيا في اواخر القرن الرابع وائل القرن الخامس للميلاد ثم اسس مملكة في شمالي افريقيا بعد ان دخلوها سنة ٤٢٨ م

ولكن الحكومة الفرنسوية اهتمت بهذه الكنوز التاريخية في الفترة القصيرة التي تلت الحرب الكبرى لانها اصدق سجلّ لتاريخ شعب عظيم . فعينت لجنة التماثيل التاريخية ونظمت مصلحة الآثار التي انضوى اليها بعض علماء الآثار كالاب دلاتر والدكتور كارتون والمسيو غوكار والمسيو مرلن الذي عين مديراً

***

السائر من تونس الى سيدي ابو سعيد في الضواحي يمرّ بالخندق الكبير الذي يفصل بين خرائب « التياترو » وخرائب « المستق » . في الجانب الشرقي من هذا الخندق بقايا جدران متهدمة يتراوح علوها بين متر ومتر ونصف وهنالك ايضاً مذبح وقواعد تماثيل ومصارف للماء وحوض كبير وصور فسيفساء وما اشبه . وقرب هذا المكان وجد العمّال سلّماً يؤدي الى مغارة سدّت بحائط وجدوا وراءهُ كنز هيكل يظهر ان الكهنة اخفوهُ حينما داهمهم العدو وعثروا فيهِ على تمثال ديميتر[٢] فنقلوهُ الى متحف باردو[٣] ولا شك في ان تاريخ هذا التمثال يرجع الى القرن الرابع قبل المسيح حينما ادخلت عبادة آلهة اليونان الى قرطاجنة

وقد تولى المسيو غوكار اعمال الحفر في منخفض من الارض يظنهُ الاب دلاتر مركز الاوديون (قاعة الموسيقى) فصدق ظنهُ ووجدوا على عمق سبعة امتار او ثمانية تمثالاً بديعاً لابلّو وعدداً من التماثيل السليمة ومائة قاعدة رخامية محفورة حفراً دقيقاً

ووجدوا احد جدران المنبر في هذه القاعة وهو لا يزال قائماً وعثروا على كثير من الاعمدة الرخامية المختلفة الالوان وبعض القناطر التي بنيت عليها مقاعد القاعة المرتفعة واكثرها مبنيّ بالرخام الابيض . ومن اغرب ما وجدوا هناك مخادع صغيرة في الحائط الذي يحيط بموقف الممثلين ويظن انها صنعت كذلك لتقوية الاصوات ويقال ان اعادة هذا البناء الى اصله ليست بالامر الصعب

واكتشف الاب دلاتر بناء تحتياً مؤلفاً من دورين وعثر على قبّة في جوانبها

(٢) الاهة الارض في الثيولوجية اليونانية (٣) تقع على ميل وربع الى الشمال الغربي من تونس

اثنا عشر عموداً من الفرانيت يفصل بينها طاقات في شكل انصاف دائرة

واكتشف غوكلر قرب موقع الاوديون شارعاً مرصوفاً وعلى جانبيهِ صفّان من الاعمدة يؤدي الى بقعة فيها كثير من المساكن الفخمة حيث عثر على قطع كثيرة من الفسيفساء البديعة النقش . وحفر في اواسط المدينة آثار كنيسة فيها صور فسيفساء ومحل للتعميد وقواعد اعمدة رخامية مما يدلّ انها من آثار المدينة التي بناها قياصرة الروم

واكتشف السيو مران جزيرة الاميرالية الفينيقية حيث عثر على قصر هملكار والد هنيبال وثبت ذلك من قراءة الكتابات الفينيقية التي وجدت عليهِ ومن هيئة احد الاعمدة التي عثروا عليها فانها تتفق كل الاتفاق مع الوصف الذي كتبهُ اپيان(٤) عن هذا القصر

ومن الآثار المهمة صهاريج «البرج الجديد» وقد رممت الآن واعيد استعمالها لجرّ الماء الى شبه الجزيرة

واكتشف الدكتور كارتون خرائب المستق الموصوف بذي الف عين وهو حوض كبير في مكان جميل يشرف على البحر يمتلىء من نبع كان اول نبع اكتشف في قرطاجنة ثم يترشح الماء المجتمع في هذا الحوض عرورو في رواق الترشيح المؤلف من حجارة ضخمة ذات مسام ثمّ يجري الى حوض آخر والحوض والمجرى مقبوّان لحفظ الماء من التلوّث بالغبار وغيره وواجهة هذا المستق مزخرفة بالنقوش البديعة . وعلى بضع خطوات منهُ حائط يبلغ علوهُ ١٢ متراً وثخانتهُ ٤٠ متراً وهو اضخم الآثار التي عثر عليها حتى الآن ويظن انهُ بقية زاوية من السور الضخم الذي يدعى « سور البحر القرطاجني»

وقد اخذ العلماء يسبرون الارض في محلات عديدة والامل وطيد انهم سيكشفون اثاراً نفيسة يصدق عليها وعلى اصحابها قول الشاعر

هذه آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

فان كانت آثار الفينيقيين في بلادهم الاصلية قد تبدد اكثرها او تلف فآثارهم في قرطاجنة باقية شاهدة بعظمتهم

(٤) مؤرخ روماني عاش في اواخر القرن الاول واوائل القرن الثاني للميلاد